أول مقالة نشرتها

وأول درس ألقيته

للأستاذ علي الطنطاوي

إني لأخط عنوان هذا الفصل وأنا أصغر من نفسي، إذ أحدث الناس حديث مقالاتي، والناس في شغل عني وعن مقالاتي بهذا الهول الماثل، والبلاء النازل، والغلاء الشامل، وبالله العوذ مما هو أشد وأعظم

ولعمر القراء ما أكثر الحديث عن نفسي لا لزهو ولا لكبر ولا غرور؛ ولكنها صناعة الأدب يسوغ معها ما لا يسوغ مع غيرها. وإني «إذا أردت الجد» لمن أشد الأدباء زهادة في الأدب، وإخال أن الناس في أدبي لأزهد، ولولا كلمات أسمعهن أحياناً فيهن تعليق على ما أكتب أو ثناء عليه، أو رسائل في مثل ذلك قد تأتيني، أو فقرات قد أقرؤها في صحيفة فيها تنويه بي، لولا ذلك «وما ذلك؟!» ما ظننت أن أحداً يقرأ مقالاتي!

وما قصدت هذا الموضوع قصداً، ولكني نبشت أوراق أفتش عن ورقة أريدها، فخرج في يدي «عدد» من المقتبس قديم، تاريخه سنة أربع وعشرين وتسعمائة وألف، ففتحته أنظر فيه، ففتحت لي دنيا من الذكريات اللذة، وقرأته فقرأت فيه تاريخ نفسي: رأيتني في الصفوف الأوائل من الثانوية، وحولي رفقة ما رأيت بعدهم مثلهم في إقبالهم على الدرس وجلدهم عليه، وفي رسوخ ملكاتهم الأدبية، وقوة طبعهم في الأدب وسليقتهم في اللغة، وتسابقهم إلى مطالعة نفائس المصنفات، ومعرفة المصادر والأمهات، ولم يكونوا كشباب اليوم الذين يحاولون الكتابة قبل القراءة، ويشترون بالنشر فيحسبون أنهم أنداد وأقران لكل من يكتب في الصحيفة التي تنشر لهم، ويعلن أحدهم عن كتابه الذي سيصدره قبل أن يكتب منه عشر صفحات، وينتقد الكاتب الكبير وهو لا يحسن أن يقيم لسانه في قراءة مقالة من مقالاته، ويخدع الجلة عن أدبه فتظنه شيئاً فتخدع به القراء، وما لم أذكر من صفاتهم آلم وأنكى...

وكنت قد قرأت طائفة من الكتب أذكر أن منها (حياة الحيوان للدميري). وهو أول ما طالعت من الكتب، وهو دائرة معارف (كما يسمونها اليوم) أو هو مُعلّم جامع فيه فقه ولغة وأدب وقصص وتاريخ وخرافات وعلم وحقائق أفدت منه كثيراً، (والصاحبي لأحمد بن فارس) وقد ألقى في نفسي إجلال العربية والإيمان بسمتها وجلالها، وحبب إلى جزالة الأسلوب وفخولة اللفظ، ولا أزال إلى اليوم أعجب برسالة ابن فارس هذا إلى من أنكر فضل الجديد لأنه جديد، ومال إلى تقديس كل قديم لأنه قديم، وأعدها من نفائس الآثار، وهي في مقدمة الكتاب، و(بلوغ الأرب للألوسي) وقد أورثني التعصب للعرب والمبالغة في ذلك، ثم علمت أن قد كان فيه زيف كثير كما كان فيه صحاح كثير، وما زلت أحفظ جملة صالحة من أخباره صحيحها وباطلها؛ و(الأغاني) قرأته كله، أعني أخباره وقصصه دون ما فيه من أسانيد وأصوات وأشعار وأنساب، وهو رأس مالي في الأدب؛ وقرأت (الكشكول) و(المخلاة) و(مراقي الفلاح) في الفقه الحنفي ألزمني والدي قراءته، أسبغ الله عليه رحمته، (وشرح رسالة ابن زيدون) المطبوع على هامش (الغيث المنسجم) وكانت طريقتي في المطالعة أني إذا فرغت من دروس المدرسة دخلت مكتبتنا فتخيرت كتاباً فأخذته فنظرت فيه، فإن أعجبني مضيت فيه لا أدعه حتى أتمه وإلا أخذت غيره، لا أستعين على ذلك بمرشد، ولا أستهدي بهاد، إلا ما كان شيخنا الأستاذ اللغوي الشيخ عبد القادر المبارك يسمه لنا من الكتب ويرشدنا إليه.

وكنا نأخذ الأدب عن الأديب الضليع المتفنن الأستاذ سليم الجندي، وكان يحذرنا (جزاه الله عنا خيراً) أن نقرأ الجرائد والمجلات وكتابات أهل العصر، على اعترافه أن فيهم من أطفأت شمسه بدور البلغاء من الأوائل، خشية أن نسيء الاختيار فتصيبنا عدوى الركاكة وهي شر من عدوى الكوليرا والجذام. فدخلت الجامعة وأنا لا أعرف من المصريين إلا المنفلوطي رحمه الله، وكنت أظنه أبلغ كتاب العصر، ولا أعدل بأسلوب (نظراته) شيئاً حتى وقع في يدي (رفائيل) للزيات، فوجدته كنزاً من أغلى كنوز النثر، وصغرت معه (عبرات) المنفلوطي حتى صارت كلا شيء. ثم عرفت الرافعي وقد أصدر كتابه (تحت راية القرآن) رفع الله به درجاته في الجنة، فعلمت أن الله قد خلق من هو أبلغ من المنفلوطي، إي والله ومن عبد الحميد وابن المقفع وابن العميد، ومن كنا نراهم يومئذ

أئمة البلاغة والحسن. على أنى لم أنس المنفلوطى وترجمت عن شكرى له ولأستاذى الجندى والمبارك بإهداء الثلاثة كتابى (الهيثميات) وهو أول كتاب ألفته (١٩٣٠)

أقول، إنى أحسست بعد قراءة ما ذكرت من الكتب بشيء يجيش به نفسى، فنفست عنها بمحاولة الكتابة فاستوى لى مقال، نسيت اليوم موضوعه، قرأته على رفيقى أنور العطار وكان يومئذ يجرب قول الشعر، فأشار على أن أنشره فاستكبرت ذلك، فما فتىء يزينه لى حتى لنت له. وغدوت على (إدارة) المقتبس وكانت فى شارع السنجقدار العظيم الذى صار خرائب وأطلالاً. فسلمت على أبى بسام الأستاذ أحمد كرد على رحمه الله ورحم جريدته ... ودفعت إليه المقال، ولم يكن من إخواننا من يعرف طريق صحيفة أو يجرؤ على النشر فيها. وكنا يومئذ متلبسين بجريمة الحياء التى أقلع عنها شباب اليوم والحمد لله الذى لا يحمد على المكروه سواه. فنظر فى المقال فرأى كلاماً مكتهلاً ناضجاً، ونظر فى وجهى فرأى فتى فطيراً، فعجب أن يكون ذاك من هذا، وكأنه لم يصدقه فاحتال على حتى امتحننى بشيء أكتبه له زعم أن المطبعة تحتاج إليه فليس يصح تأخيره، فأنشأته له إنشاء من يسابق قلمه فكره، فازداد عجبه منى ووعدنى بنشر المقال غداة الغد، فخرجت من حضرته وأنا أتلمس جانبى أنظر هل نبتت لى أجنحة أطير بها لفرط ما استخفنى السرور. ولو أنى بويعت بإمارة المؤمنين ما فرحت أكثر من فرحى بهذا الوعد. وسرت بين الناس وكأنى أمشى فوق رؤوسهم تعالياً وزهواً. وما أحسبنى نمت تلك الليلة ساعة، بل لبثت أتقلب على الفراش أتصور أى جنة من جنات عدن سوف أدخل فى غداة الغد ... أى كنز سأجد. وجعلت أترقب الصباح ولا ترقب عاشق متيم ينتظر وصلاً بعد طول الهجران، حتى إذا انبثق الصبح وأضحى النهار، أخذت الجريدة، فإذا فيها المقال وبين يديه كلمة ثناء لو قيلت للجاحظ لرآها كبيرة عليه ...

* * *

وعدت أنظر إلى الجريدة القديمة الصفراء وهى مائلة بين أوراقى، وأفكر فى هذا الأدب ماذا جنى على وماذا جنيت منه. لقد سرت بعد تلك المقالة أعدو فى طريق النشر. فكتبت فى جرائد الشام ووفدت على خالى الأستاذ محب الدين الخطيب فى مصر، فأخذ بيدى وسدد خطواتى، وكان لى أفضل مرشد ومعين، وأفدت من خلقه ومن علمه ومن ماله، ثم عدت إلى دمشق، ثم اتصلت بالرسالة صديقة روحى وسميرة وحدتى، وكانت لى خير مدرسة، فيها الأستاذ الزيات خير مدرس. وكنت إذا نظرت فى كتاب، أو أصغيت إلى حديث، أو ضمنى مجلس، أو شملتنى عزلة، أو اضطجعت لأنام، أو نهضت من منام، أو ذكرت ماضياً، أو فكرت فى آت، أو أغمضت عينى متأملاً، أو فتحتهما على مشهد من مشاهد السماء والأرض، أجد فى كل ذلك موضوعاً لمقالة أكتبها أو فصل أنشئه، وأجد الهمة حاضرة والذهن نشيطاً. ثم كرت أيام، وغبر دهر، وأصبحت لا أستطيع أن أخط سطراً على قرطاس، وإذا كتبت لم أدر كيف أكتب، ولا لماذا. وأبعث بالذى أكتبه إلى (الرسالة) مضطرب الأعصاب مزلزلاً، فإن أخرته غضبت، وإن ألفيت به تطبيعاً وخطئات لم يتنبه لها المصحح تألمت، وإن وجدته نسب إلىّ ما لم أقل — ويحمل فى المقالة أخطاء تدل على جهل الكاتب وما هى منى ولا أنا صاحبها، عزمت على ترك الكتابة بالمرة وكبر على الأمر، ثم إن جاءت المقالة منشورة قرأتها مرة لأطمئن عليها ومرة لأنقدها مجرداً من نفسى ناقداً لها، ثم أرميها فلا أطيق النظر فيها، ولا أجد من يحدثنى عنها كأنى أكتب لصخور الجبل لا لبنى آدم ...

فماذا أفدت من الأدب؟ أما إنى لم أجد الأدب إلا عبثاً، ولم أجد الأدباء إلا مجانين، يسعى الناس وراء المال ويسعون وراء سراب خادع يسمونه (المجد الأدبى). كلما أقبلوا عليه نأى عنهم فما هم ببالغيه حتى يموتوا. وما ينفع ميتاً ذكر فى الناس، ولا يغنى عنه مجد، ما ينفعه إلا ما قدم من عمل صالح — ولقد كان رفيقى سعيد الأفغانى أعقل منى إذ كان يمط شفته ساخراً كلما حدثته عن آمالى فى الحياة ورغبتى فى أن أكون كاتباً يشار إليه بالأصابع؛ وكنا يومئذ فى المدرسة الثانوية نتسابق إلى مطالعة الكتب ونتبارى فى تلخيصها والملاحظة عليها. فما صنع الزمان بآمالى؟ لقد أرانى أنى كنت أسعى أطلب السراب، فلا أصل إلى شىء، وما ثمة شىء حتى أبلغه ...

هذه هى قصة ابتلائى بهذا الأدب الذى أنا تاركه اليوم، أو ظان أنى تاركه، ومقبل على الفقه أجدد العهد بما قرأت من كتبه، وواهب له قوتى ووقتى، فليهنأ الذين يجدون فى

سداً في وجوههم أن ينلوا من الأدب ما يريدون ، والذين يرون أني مزاحمهم على هذا المورد الآسن

ولقد كنت أهزل يوم كتبت أفضل الأدب على العلم ، وأين من أين ؟ وهل تستوى الحقائق والأوهام ؟ وهل من علم يوازى علم الفقه ويضارعه شرفاً ، وبه يعرف الحلال من الحرام ، وبه تضمن الحقوق ، ويدرأ الخصام ويعم السلام ... ؟ ولئن نزع الشباب من زيّ أهل الفقه ، وخافوا أن يوصموا بالجمود والرجعية ، فما يفزع ذلك من سمّى بالشيخ وارتضاه له اسماً ، ولا تثقل عليه عمامته إن كوّرها ، ولا لحيته إن أطلقها ...

والثياب ، لا جرم ، تعمل في تكوين طبائع المرء وتوجيه سيرته ، فأنت حين تتخفف من الثياب ، أو تتخذ ثياب أهل الرياضة (السبور) ، فتلبس السراويلات القاكير القصار أو التبان ، تشعر بالخفة وتميل إلى القفز والتوثب ، وتكره القرار على الأرض ؛ فإن أطلت لبسه ، أوشك أن يكون ذلك لك عادة ، وإن لبست الجبة ولبثت على هامتك العمامة ، ملت إلى التوقر والرزانة ، ولم تستطع أن تأتى ما هو مناف لها ، وتنزهت حتى عن قعود في قهوة ، أو ولوج سينمة ، أو إسراع في مشية في طريق ، أو مزحة نابية ، أو قهقهة مفرقعة في مجلس ... وتطبع على ذلك حتى يعود لك طبعاً . وإن اتخذت (البرنيطة) جنحت بالضرورة إلى مصاحبة أهلها ومجالستهم ، وملت عن المساجد ومجالس العبادة ، ولو كنت مصلياً متعبداً ، ومن هنا جاء النهى عن التشبه بغير المسلمين ، والأمثلة على ذلك كثيرة ...

على أني إن تركت الأدب فما أنا بتارك الكتابة ، وإن من الكتابة لعلماً ، وإن منها لإصلاحاً ، وإن منها لما ينفع الناس ويدلهم على طرق الخير ... كما أن من الكتابة ما هو ثرثرة جهلة ، وتسلية سخيفة ، ولغو من القول يذهب جفاء ... فلينظر ذوو الأقلام ما يأخذون منها وما يدعون ، ولينظر القراء ما يقرءون منها وما يهملون ... !

***

أعتذر إلى القراء مرة ثانية من الحديث عن نفسي ، فإنه أثقل الأحاديث على أذن السامع ، ولكنها صناعة الأدب ، قاتلها الله ...

ولقد أردت حين شرعت في هذه المقالة أن أقول أشياء كثيرة زورتها في نفسي وأعددتها ، فلما بلغت الكلام عن أول درس ألقيته ، وذكرت هذه المرحلة من حياتي التي قضيتها معلماً ، وتنقلت فيها في الآفاق ، ورأيت فيها من المتع والآلام ، ومن بيض الليالي وسود الأيام ، ما لا يعلم حقيقته إلا الله ... وما لم أصف في مقالاتي في (الرسالة) إلا الأقل الأقل منه ...

لما بلغت ذلك اختلج في نفسي من العواطف ، وثار فيها من الذكر ، ما عقل قلمي وحبسه عن المسير . وكيف أجمع في مقالة واحدة ما تفرق من قلبي في جنات دمشق ، وقد علمت في كل مدرسة فيها ، وفي (الحرش) الفتان من بيروت حيث (الكلية الشرعية) وعلى الشاطئ الوادع من دجلة حيث (الثانوية المركزية) ، وفي طريق الأبلة إحدى متنزهات الدنيا الأربعة حيث (الثانوية البصرية) ، وعلى سيف الفضاء الأرحب من (كركوك) بلد الذهب الأسود الذي يشتعل أبداً ، وعلى ضفة الفرات الجهل في دير الزور ، البلد الكريم أهله ، وحيث أذكر ولا أذكر

إنها لتخطر على قلبي الساعة آلاف من الصور التي مرت من قبل على عينيّ ؛ بل إني لأبصر الآن الآلاف من وجوه زملائي في التعليم وتلاميذي الذين أحببتهم ، تنبعث من ظلام الذكريات ؛ ثم تطيف بي محيية باسمة تتلو عليّ قصة نفسي ، وتعيد إليّ ما مضى من عمري ؛ فكيف إلى الاجتماع بهؤلاء الأصدقاء لأودعهم قبل أن يتجدد الفراق ، ولا حدث بهم عهداً ، كيف وقد تفرقوا تحت كل نجم ! كيف وقد علا منهم من علا وهبط من هبط ، وشغلتهم شواغل الحياة فلم يعودوا يذكرون معلماً ولو لم ينسهم ذلك المعلم ! كيف ومنهم الوفي ومنهم الجاحد والناس معادن ...

يا رحمة الله للمعلمين ، لمن كان له منهم قلب ، وسلام على أيامي التي صرمتها معلماً ... وعلى كل من يقرأ هذا الفصل من زملائي وتلاميذي ، ولهم مني أوفى حب ، وتحيات قلبي !

(النبك — سوريه)

علي الطنطاوي

القاضي الشرعي

حكمت محكمة دمنهور العسكرية بجلسة ١٥ أكتوبر سنة ١٩٤١ في القضية رقم ٥٦٤ سنة ٩٤١ ضد حمزة أحمد عيسى بقال بدمشلي مركز كوم حمادة بالحبس شهراً مع الشغل والنشر على مصاريفه لبيعه سكراً بسعر أزيد من المحدد بالتسعيرة